نفحات من بلاغة القرآن الكريم

نُشرت بصيغ عدّة في المجلة العربية الصادرة في الرياض.

وفي موقع شبكة مزامير آل داود، في ٢٧ رمضان ١٤٣١هـ/ ٦ سبتمبر ٢٠١٠م.

امتاز أسلوب القرآن باجتناب سبل الإطالة، والتزام جانب الإيجاز – بقدر ما يتسع له جمال اللغة– وذلك جعله أكثر الكلام افتنانا، أي أكثره تناولا لشؤون القول وأسرعه تنقلا بينها[١].

وفي هذه المقالة إشارات إلى بعض مكامن البلاغة في القرآن الكريم، بعضها مما وقفت به من قراءات متعددة لبعض المعتنين بهذا الجانب في الدراسات القرآنية، وبعضها اجتهاد في تلمس موضع البلاغة، آمل أن يكون فيه شيء من التوفيق، وأعوذ بالله أن أتكلم في كتابه بما ليس لي به علم.

وكان مما وقفت به مليّا قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ[٢]، وهي في آيات يصدق عليها ما قاله محمد دراز من أن أسلوب القرآن يتنقل في المعنى الواحد على نحو من السرعة لا عهد بمثله، ولا بما يقرب منه في كلام غيره، ومع هذه التحولات السريعة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب، تراه لا يضطرب، بل يحتفظ بتلك الطبقة العالية من متانة النظم[٣].

هذا الانتقال السريع الموجز لكثير من الوقائع والأحداث في تلك القصة بيّن في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِيْ هذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاْذَا يَرْجِعُوْنَ○قالتْ يَا أَيُّها الملَؤُ...﴾[٤] وفي قوله: ﴿وَإِنِّيْ مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ○فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمَانَ...﴾.[٥] ولا شك أن في السياق كثيرا من الحذف البليغ، ففيه إيماء إلى الوقائع، وانتقال أشبه بالإضراب عما يُستغنى عن ذكره.

أما قوله عز وجل:﴿قَالَ يَاأَيُّها الملَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِيْنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ○ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ○ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ

الكِتَبِ أنَا آتِيكَ بِهِ قبلَ أن يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٦]

ففيه انتقال فجائي بين قول الذي عنده علم من الكتاب وتكفله بأن يأتي بعرشها قبل أن يرتد طرف سليمان إليه، وبين وقوع ما تعهد به من إحضار العرش عند سليمان.

إن القارئ لهذه الآية يعيش فيها بشعوره وإحساسه بدقة عظيمة، إذ إنه – أي القارئ– لا يكاد يرتد إليه طرفه حتى يفاجئه سياق الآية بتحقق الأمر ووقوعه، وهذا نمط من البلاغة القرآنية مفرَد، فقد تضافر اللفظ والمعنى والسياق في تأدية القصة ونقل ذلك المقام الذي جرت فيه تلك الواقعة العجيبة.

وشبيه بهذا النمط من البلاغة في سور أخرى قوله تعالى: ﴿فلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوْا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيْها عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوْا لَا يُرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ﴾[٧].

فالانتقال المفاجئ من وصف الريح المقبلة إلى بيان أثرها المروّع (فأَصْبَحُوْا لَا يُرَى إلّا مَسَاكِنُهُمْ) يجعل تاليَ القرآن يشعر بما وقع لأولئك القوم، ويعيش في الجو الذي صحب تلك الريح، بحيث إن أثرها كان لشدته وهوله مغنيًا عن ذكر مبادئ هبوب الريح وما فعله القوم لاتقائها، فمفاجأة الانتقال في التعبير تناسب المفاجأة التي وقعت لأولئك القوم.

وضرب آخر من التعبير القرآني الفريد في قوله تعالى في قصة الأحزاب متضمنًا ذكر ما لقيه المؤمنون من الشدة والجهد:

﴿إِذْ جَاؤُوْكُم مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾[٨]

إننا نجد أنفسنا تجاه مشهد عصيب قاسى المسلمون الأوائل شدائده، وقد أسهمت الصورة الفنية في نقله وتشخيصه، وفي جعل القارئ يعيش فيه بشعوره وإحساسه وإن لم يشهده، ففي (زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) تصوير مهول لذلك الفزع والخوف الذي ألجم الأفواه، والعادة أن

لســان الخائف ينعقد دهشــة ورعبًا، فيفقد القدرة على الكلام، فكأنما صـعدت القلوب حقيقة إلى أعلى مجرى النفَس فسدته.

وفي قوله تبارك وتعالى في قصـة نوح عليه السـلام: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ﴾(٩) أجد أن مجيء لفظ (الجبال) لتشبيه الأمواج العظيمة بها كان ملائمًا لحال القوم المخاطبين بهذا القرآن حين نزوله وهم كفار قريش، فالآية مكية، ووجه الملاءمة أنهم يعيشـون بين جبال شـواهق، ويظهر أن (ال) في (الجبال) عهدية، أي أن المراد – والله أعلم- موج كهذه الجبال التي أنتم قاطنون بينها. وفي ذلك من التحذير والتقريع والتخويف ما فيه.

ومما وقفت عنده مَلِيًّا من أسـاليب التعبير القرآني أن الآية التي تتضـمن دعاء أحد الصـالحين يأتي فيها- غالبًا- الفعل المتضـــمن الاســتجابة الربانية معطوفًا بالفاء، كقوله تعالى في قصـــة زكريا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءِ، فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ...﴾(١٠)

وكذلك في قصـة نوح: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِيْ وَمَن مَّعِي مِنَ الـــمُؤْمِنِينَ○ فَأَنْجَيْنَهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفُلْكِ المشْحُونِ﴾، ثم عطف ب(ثم) لما ذكر مصير الظالمين:﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾(١١)

ومثل ذلك قوله تعالى في قصـــة لوط عليه السـلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ○ فَنَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ثم عطف ب(ثم) لما ذكر حال الظالمين:﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾(١٢)

والنحويون يقولون إن الفاء للمعاقبة أي أن المعطوف يجيء ملاصـــقًا لما قبله، وأما (ثم) فهي للعطف مع التراخي،(١٣) وقد كان من رحمة الله وفضـــله على عباده الصـــالحين أن كانت إجابته لاســتغاثتهم عاجلة، ومجيء الفاء عاطفة هو الذي دل على هذا، وأما الكاذبون المعاندون فكان من سعة فضله أن أمهلهم، ومجيء (ثم) دالّ على ذلك الإمهال.

وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُــولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ○ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُــولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(١٤)

نجد أن صفة الخلود جاءت بصيغة الجمع في البشارة (خالدين) وبصيغة الإفراد في الوعيد (خالدا).

وقد سئل أبو سعيد بن لبّ عن سر ذلك فقال: إن الجنة لما كان لأهلها فيها اجتماعات وليس فيها فرقة ولا توحد، جاء قوله (خالدين فيها) اعتبارا بالمعنى الحاصل في الجنة من الاجتماع، ولما كان أهل النار على الضد من هذا وكل واحد منهم في تابوت من نار، حتى يقول أحدهم إنه ليس في النار إلا هو؛ جاء قوله (خالدا فيها) اعتبارا بهذا المعنى. [١٥]

أقول: ووقع في حسباني أن الجمع في الأولى زيادة في البشارة للمؤمنين؛ لأن السعادة لا تتم إلا باجتماع الأضراب والأتراب، والإفراد في الأخرى زيادة في الوعيد؛ لأن خصوص العذاب زيادة فيه، والله أعلم بمراده.

ومن الآيات التي أطلت تأمّلَها آيات قصة موسى والرجل الصالح في سورة الكهف، ففيها وردت تعبيرات متشابهة غير متماثلة، وذلك حين شرع الرجل الصالح في تأويل ما لم يستطع عليه موسى صبرًا، ففي الأولى: ﴿فأردتُ أن أعيبها﴾، وفي الثانية: ﴿فأردنا أن نُبْدِلَهما خيرًا منه زكوةً وأقربَ رُحْمًا﴾، وفي الثالثة: ﴿فأراد ربُّك أن يَبْلُغَا أشُدَّهما﴾[١٦]. إن الإرادة في الأولى مسندة إلى الرجل الصالح: (فأردت)؛ وذلك لتنزيه لله عن إيقاع العيب، وفي الثانية جاء ضمير (نا)؛ لأن الإرادة هنا إرادتان: إرادة الله الكونية ألّا يعيش ذلك الغلام، وإرادة الرجل الصالح قتلَه، وهي إرادة منوطة بإرادة الله وصادرة عنها، وفي الثالثة جاء قوله: فأراد ربك، مسنَدَة فيه الإرادة إلى الله فحسب؛ لأن بلوغ الأشدّ مما لا يقدر عليه سوى الله، ولا يشاركه فيه أحد من خلقه. والله أعلم بمراده. ولبعض العلماء ودارسي البيان القرآني وقفاتٌ جيدة عند هذه الآيات الثلاث، فكلامي مستقًى من منابعهم.

---

(١) ينظر: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة، ط الثانية ١٤٢١هـ: ص١٨٢.

(٢) الآيات ١٧-٤٤ من سورة النمل.

(٣) ينظر: النبأ العظيم ص ١٨٢ حاشية.

(٤) سورة النمل ٢٨-٢٩.

(٥) سورة النمل ٣٥-٣٦.

(٦) سورة النمل ٣٨- ٤٠.

(٧) سورة الأحقاف ٢٤-٢٥.

(٨) سورة الأحزاب ١٠.

(٩) سورة هود ٤٢.

(١٠) سورة آل عمران ٣٨-٣٩.

(١١) سورة الشعراء ١١٨-١٢٠.

(١٢) سورة الشعراء ١٦٩-١٧١. على أن (الفاء) و(ثم) تتعاقبان في مثل هذا السياق، وذلك مدعاة لإفردها بدراسة تجلِّي مواضع البلاغة فيها.

(١٣) ينظر: ثمار الصناعة في علم العربية، ابن هبة الله الدينوري، تحقيق د. محمد الفاضل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩١م: ص ٤٨١.

(١٤) سورة النساء ١٣-١٤.

(١٥) ينظر: الإفادات والإنشادات، الشاطبي ص ١٥٤.

(١٦) سورة الكهف، الآيات ٧٩، ٨١، ٨٢.